التأنيث الكامل لتربية الطفل فى دور الحضانة ورياض الأطفال هل يظل قدراً محتوماً ؟

أ.د/ جابر محمود طلبه

رئيس قسم رياض الأطفال بكلية التربية

ومدير مركز رعاية وتنمية الطفولة

جامعة المنصورة

مجلة رعاية وتنمية الطفولة – جامعة المنصورة
العدد (٢) – المجلد (١) – ٢٠٠٤م

التأنيث الكامل لتربية الطفل
في
دور الحضانة ورياض الأطفال
هل يظل قدراً محتوماً ؟

قـــال الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم " واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا " (سورة الإسراء / ٢٤)

رغـم الاتجاهات التربوية والاجتماعية السائدة حالياً في قصر العمل مع الأطفال فـي دور الحضانة ورياض الأطفال وكذا الصفوف الثلاثة الأولي من الحلقة الابتدائية مـن التعليم الأساسي في مصر، على الإناث فقط دون الرجال وفقاً لاعتبارات تربوية لهـا وجاهتها وهي: أن المرأة اكثر حباً، عطفاً، حناناً، رفقاً، عطفاً، صبراً ، ورعاية للطفـل مـن الـرجل، إلا أن استمرار هذه التأنيث الكامل لمهنة تربية الطفل في دور الحضانة ورياض الأطفال قد لا يكون في مصلحة الطفل تربويا واجتماعيا ونفسيا من ناحـية ، وقد لا يكون في صالح هذه المهنة الراقية بل قد يزيد من تحدياتها الحالية المستقبلية وخاصة على سلم التقدير الاجتماعي من أخرى .

لـيس هـذا فحسـب ، ولكن تأنيث التربية في دور الحضانة ورياض الأطفال ووجـود المعلمات كجنس أنثوي وحيد في هذه المؤسسات له انعكاساته السلبية على عملـية التنميط النوعي واكتساب الأدوار الاجتماعية المقبولة لكل من الأطفال البنين والبـنات ، إضافة إلى تشكيل بعض الأنماط السلوكية غير المرغوبة ، وتكوين بعض الصـور النسـوية لدى هؤلاء الأطفال الذكور، الذين حرموا - بسيادة الإناث - من وجـود الأب الضروري لتجسيد وإبراز نماذج القدوة السلوكية المطلوبة من الأطفال الذكور في الواقع الاجتماعي ، فالأطفال في دور الحضانة ورياض الأطفال في حاجة إلـى المعلم (الرجل) ليلعب أدوار الرجولة والأبوة أمام الأولاد الذكور مثلما هم في

حاجة إلى المعلمة (الأنثى) لتلعب أدوار الأنوثة والأمومة أمام البنات الإناث، حتى يكـون مجـتمع الروضة صورة طبيعية لمجتمع الأسرة التي تمثل جزءا من المجتمع الخارجي الذي يتعرض له الطفل في إطار ثقافة المجتمع المحيط .

كما أن تأنيث مهنة تربية الطفل في دور الحضانة ورياض الأطفال تأنيثاً كاملاً، قـد يصـبغ مهـنة تربية ما قبل المدرسة بالصبغة النسوية ويجعل من هذه المهنة (مهـنة نسـاء) ويحصـرها فـي سجن الحريم وما لهذا من انعكاسات على الوضع الاجتماعـي لمهنة تربية الطفل ، كما أن تأنيث هذه المهنة قد يعاند المنطق الإنساني السـليم الـذي يجعـل كل المهن في الواقع المعاصر فرصاً متاحة أمام الجنسين من الرجال والنساء ، وقلما نجد مثل هذا القصر والإصرار على تأنيب مهنة تربية الطفل موجـوداً فـي المهـن المجتمعية الأخرى التي يعمل فيها النساء جنباً إلى جنب مع الـرجال ، وعلـى سبيل المثال فمهنة (طب الأطفال) يعمل الطبيب الرجل مع الطبيبة الأنـثى ، كمـا أن أول من عمل في مهنة تربية الطفل في رياض الأطفال كان رجلاً وهـو المربى الألماني فريدريش ولهلم فروبل Frederich Wilhalum Frobel الذي أخرج فكرة رياض الأطفال إلى حيز الوجود عام ١٩٣٧م .

لـيس هـذا فحسب ، ولكن لم يكن فريدريش ولهلم فروبل آخر الرجال الذين عملـوا فـي مجـال تربية الطفل كمربي غربي ، فهناك أيضا في عالمنا العربى من الـرجال الذين وهبوا أنفسهم للدفاع عن قضايا رعاية وتنمية الطفولة والوالدية وهو المـربى المصـرى جابر محمود طلبه Prof. Dr. Gaber Mahmoud Tolbah الذي عمل في مجال تربية الطفل لما يزيد عن ربع قرن من الزمان فكرا ونظاما وممارسة فعلـى مستوى الفكر كانت أبحاثه ومؤلفاته التي جاءت في سلسلة (الطفل أصيل) ، دلـيلا كافـيا علـى إمكانية نجاح الرجال في تربية الأطفال ، وعلى مستوى التطبيق كانـت ممارسـاته الـتربوية في إدارة روضة أطفال جامعة المنصورة ، وكذا قيادته للأنشـطة الـتربوية الداخلية والخارجية بوحدات مركز رعاية وتنمية الطفولة بذات الجامعـة ، دلـيلا كافيا على تجسيد الرسالة التربوية لهذا المربي العربي في مجال تربية الطفل قبل سن المدرسة .

فـإذا انتقلنا إلى إعداد وتكوين معلم رياض الاطفال على المستوى الجامعي في مصـر ، نجـد أن هـناك عرفا مقصودا وقصرا دارجا على أن تكون الإناث فقط هن معلمات للحضانة ورياض الاطفال دون المعلمين الذكور ، والدليل على ذلك أن القبول بشعب رياض الأطفال بكليات التربية وكذا كليات رياض الاطفال – عبر مكتب تنسيق القـبول بالجامعات المصرية – مقصورا على الطالبات فقط دون الطلبة ربما لأسباب علمية وماضوية .

هـذا بالإضـافة إلـى : أن الهدف الأول من المادة الأولي في اللائحة الموحدة لكلـيات ريـاض الأطفال بالجامعات المصرية الصادرة بالقرار الوزاري رقم (٨٥٩) بتاريخ ١٩٩٤/٧/٢٥، يتضمن (إعداد معلمين/ معلمات للعمل في رياض الأطفال مع الأطفال العاديين وغير العاديين) ؛ أي أن الذين صنعوا هذه اللائحة من المتخصصين فـي تربية الطفل قالوا بعدم سيادة الإناث فقط كعنصر نسائي وحيد للعمل مع الأطفال قبل المدرسة ، بل خصوا في هذا الهدف كل من المعلم/ المعلمة لرياض الأطفال لكي يكـون للذكـور نصـيب معلـوم مـن العمل مع الأطفال في مؤسسات تربية ما قبل المدرسـة، فوجـود المعلـم (بديـل الأب) هام للأطفال مثل أهمية وجود المعلمة (بديلة الأم) بدور الحضانة ورياض الأطفال.

فإذا ما انتقلنا إلى الأدب التربوي الأجنبي خاصة "عندما يكون الحديث عن دور الحضانة ورياض الأطفال وعمن يقوم على توجيه أنشطة العملية التربوية فيها، حيث يذكـر ضـمير هو / أو هي (She/ he - his/ her) للدلالة على أن هذه المؤسسات التربوية تضم ذكوراً إلى جانب الإناث وإن كانت الغالبية من الإناث ، إضافة إلى ذلك ، فـإن الأدب الـتربوي الأجنبـي يشـير إلـى أن مصـطلح معلـم رياض الأطفال (kindergarten teacher) ، وال (Teacher) هـنا يعنـي المعلم الرجل كما يشـير إلـى المعلمـة الأنثى، وكذلك فإن من يقرأ في التخصص الدقيق لتربية طفل ما قبل المدرسة يقابل بتكرار كلمة هي/ هو عن معلم رياض الأطفال وربما بشكل قد

يعجب القراء عندما يقرءوا (She/ He) ، للدلالة على أن معلم رياض أطفال يجب أن يجمع بين النوعين (Gender) معلم كان أو معلمة.

ومع ذلك، فقد يكون هناك بعض العوامل والاعتبارات التي تفسر استمرار تفشي ظاهرة تأنيث مهنة تربية الطفل في دور الحضانة ورياض الأطفال في ثقافة مجتمعنا العربي ، منها على سبيل المثال:

١- وجود اتجاه تقليدي سائد بين كثير من أفراد المجتمع العربي بما فيهم بعض التربويين لتعزيز ظاهرة تأنيث التربية في دور الحضانة ورياض الأطفال، ويحمل هذا الاتجاه اعتقاداً راسخاً بأنه (المعلمة أنجح وافضل من المعلم في تربية الأطفال الصغار)، على اعتبار أن المعلمة- بصفتها كأم- لديها عاطفة الأمومة وما يكتفها من حب، عطف، صبر ، حنان، وفهم احتياجات الطفل في عمره المبكر، ومن هنا كان هناك استبعاد غير منطقي للمعلم الرجل وسيادة وجود المعلمة الأنثى في العمل بدور الحضانة ورياض الأطفال، دون النظر إلى اعتبارات التكوين الذاتي الواهن الضعيف للنساء والنقص في بعض الأبعاد كالشهادة (العقل) والصلاة (الدين) وغيرها من سلبيات التفاعل الاجتماعي مع الأطفال الصغار خاصة الذكور منهم.

وعلى الرغم من استمرار قبول (الإناث) فقط بشعب رياض الأطفال بكليات التربية وكذا كليات رياض الأطفال بالجامعات المصرية ، واستمرار تخريج أعداد كبيرة ومتزايدة من معلمات رياض الأطفال للعمل في مؤسسات تربية ما قبل المدرسة، إضافة إلى المعلمات (الإناث) اللاتى يعملن من قبل فى هذه المؤسسات كتجسيد لتأنيث التربية في دور الحضانة ورياض الأطفال ، إلا أن مقولة (المعلمة أفضل من المعلم فى تربية الطفل) تبقى مقولة جدلية لم تطرح صحتها بشكل مطلق في كل الأحوال، بل أن هناك من يجادلون فيها ويعكسون وضعها نحو تغييرها من أجل التوازن التربوي في حياة الطفل ، إذ يعتقد الكثيرون أن المعلمات أقل توافقاً مع متطلبات العمل من المعلمين واقل منهم نشاطاً على المدى

الطويل، ومن هنا يصيح من الخطر تعميم مقولة المعلمة افضل من المعلم على نحو إطلاقي عام لأنها تصبح مقولة خاطئة ومضللة .

٢- قد يكون للبدايات الأولى لنشأة وانتشار دور الحضانة ورياض الأطفال في مصر ودخول العنصر النسائي فقط للعمل بهذه المؤسسات لدواعي اقتصادية واجتماعية، وعزوف الرجال- في مثل هذا الوقت- عن العمل مع الأطفال وتفضيل مهن اكثر ربحاً ومكانة اجتماعية، سبباً وجيهاً في سريان تعميم اجتماعي لاحتكار النساء مهنة تربية الطفل، حتى صارت هذه المهنة حبيسة الأنثوية لدى الإناث أصحاب الأمومة من دون الرجال أصحاب الأبوة، وكأنها عملية وراثة اجتماعية لمهنة تربية الطفل، حتى أن بعض الدراسات التربوية قد تحيزت إلى بنات جنسها ونادت بضرورة الإبقاء على قصر القبول بمصادر إعداد معلم رياض الأطفال فى مصر على الإناث دون الذكور، لأن الأمومة منحة من الله سبحانه وتعالى خص بها الأنثى وفطرها عليها وأسند لها - كما تقول الدراسة - مهمة الرعاية والتربية للطفل.

وكأن هذا التحيز الفكري - وربما التشدد المتعصب - لتأنيث التربية في دور الحضانة ورياض الأطفال لا لشيء إلا لكون المرأة أنثى تملك عاطفة (الأمومة)، وكأن الرجل لا يتميز بأي شئ تجاه الطفل كعاطفة (الأبوة) مثلاً في مقابل عاطفة (الأنوثة) أن جاز هذا التعبير، فقد يتناسى البعض أن تربية الطفل هي بمثابة عملية مشاركة تربوية في إطار من التوازن النسبي بين المرأة والرجل كجناحي للأسرة المتوافقة، فكل طفل في حاجه شديدة إلى الأم (المرأة) مالكة عاطفة (الأمومة)، كما هو في حاجة شديدة أيضا إلى الأب (الرجل) مالك عاطفة (الأبوة) ليحظي الطفل بالبنوة الصحيحة، ذلك أن إسقاط أو تعطيل أو غياب أدوار أي منهما (الوالد- الوالدة) هو نوع من الإساءة المتعمدة والضرر البالغ لتربية الطفل في الحاضر والمستقبل، الأمر الذي كفله الشرع الإسلامي الكريم عندما أوضح المهمة المشتركة

للوالديـــن (الرجل والمرأة) معاً في تربية الطفل الصغير (واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً) (سوره الإسراء/ ٢٤)

ومما يؤكد أهمية دور الرجال كمعلمين لأبنائهم ما جاء في القرآن الكريم على لسان لقمان الحكيم وهو يربى ابنه عن طريق الموعظة الحسنة (وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بنى لاتشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم ، ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين أن أشكر لي ولوالديك إلى المصير ، وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا ، واتبع سبيل من أناب إلى ثم إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون ، يابني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السماوات أو في الأرض يأتى بها الله إن الله لطيف خبير ، يابني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وأنه هن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور ، ولا تصعر خدك للناس ولاتمشى في الأرض مرحا إن الله لا يحب كل مختال فخور ، واقصد في مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير) لقمان /١٣-١٩.

٣- قد يكون لظاهرة تأنيث مهنة تربية الطفل تأنيثاً كاملاً في دور الحضانة ورياض الأطفال أصولاً دينية في مجتمعاتنا العربية الإسلامية، تتمثل في أحقية النساء المطلقات اللائى لديهن أطفال صغار في حضانة هؤلاء الأطفال مالم يتزوجن من رجال آخرين بعد طلاقهن وأدت هذه الأصول إلى تعميم هذا التأنيث، استناداً إلى حديث الرسول صلى الله عليه وسلم (أنت أحق به مالم تنكحى) .

فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، أن امرأة جاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقالت : أن ابنى هذا كان بطني له وعاء، وحجري له حواء،

وثديي له سقاء، وزعم أبوه أن ينزعه مني، فقال صلى الله عليه وسلم:(أنت أحق به مالم تنحكي) .

وعن يحيى بن سعيد قال: سمعت القاسم بن محمد يقول: كان عند عمر بن الخطاب امرأة من الأنصار، فولدت له عاصم بن عمر، ثم إن عمر فارقها، فجاء عمر إلى قباء، فوجد ابنه عاصماً يلعب بفناء المسجد، فأخذ بعضده فوضعه بين يديه على الدابة، فأدركته جدة الغلام، فنازعته أياه حتى أتيا أبا بكر الصديق. فقال عمر: ابني، وقالت المرأة : ابني. فقال أبو بكر: خل بينها وبينه، الأم أعطف، ألطف، أرحم، أحن، أخير، وأرأف ، وهي أحق بولدها ما لم تتزوج ، فما راجعه عمر الكلام.

وإذا كان هذا صحيح من وجهة نظر الفقه الإسلامي في تقديم الأم المطلقة لأن تكون لها حق ولاية الحضانة لأطفالها ما لم تتزوج رجلاً آخر، لكونها أعرف بحاجات هؤلاء الأطفال وأقدر على تلبيتها ولها من الصبر، الوقت والحنان ما ليس للرجل الذي لم يجد الإمساك بالمعروف فسرح بالإحسان ، فإن هذا يجوز (للأم الحقيقة) وأطفالها الشرعيين لتجسيد معاني الأمومة الطبيعية رعاية لمصلحة الأطفال الصغار في المقام الأول.

أما بالنسبة (للأم البديلة) وهي المعلمة في رياض الأطفال فالأمر مختلف، فهي تعمل مع أطفال في مثل مكان أطفالها ولكن لهؤلاء الأطفال أمهات طبيعيات أخريات، في اسر طبيعية تعيش حياتها الطبيعية (الأب- الأم- الأولاد)، الأمر الذي تنتفي معه عمومية الإحالة إليها، وفي هذا إبطال لدعاوى الاستمرار في تأنيث مهنة تربية الطفل تأنيثاً كاملاً في دور الحضانة ورياض الأطفال.

وتحاشيا لهذه الانعكاسات السلبية لتأنيث التربية في دور الحضانة ورياض الأطفال وتفاديا للأضرار التربوية والنفسية والاجتماعية التي قد يعاني منها الأطفال الذكور في هذه المؤسسات، فقد كانت هناك بادرة أمل لتصحيح هذا الوضع المعوج في تجربة رائدة- فريدة ووحيدة وسديدة- لكلية التربية - جامعة حلوان عندما

قبلت في شعبة رياض الأطفال بعضاً من الطلاب المعلمين الذكور لأول مرد في مصر، وقد تخرج بالفعل بعض المعلمين من هذه الشعبة أثبتوا في دروس وتطبيقات التربية العملية الميدانية نجاحاً واضحاً، الأمر الذي لم يعجب البعض ممن يعيشون في الماضي دون تحريك التفكير نحو المستقبل ، فتوقف قبول الطلبة في شعبة رياض الأطفال وبذلك لم تساير اتجاهاً تقدمياً في غالبية الدول الغربية.

وتوضح إحصاءات شئون الطلاب بكلية التربية جامعة حلوان أن عدد الطلاب الذكور الملتحقين بشعبة رياض الأطفال الذين قد توقف قبولهم بها فى العام الجامعى ١٩٩٣/٩٢ قد بلغ عدد (٤) فقط أربعة طلاب ذكور، الأمر الذى تعتبره الدراسة – أى توقف قبول الطلبة البنين – (نكسة) تربوية لتربية الطفل و(صفعة) قوية لمهنة تربية الطفل ، ينبغي الإفاقة منها وعدم الاستسلام لها ومعاودة الكرة مرة أخرى لمواجهة هذا التحدي التربوي الخطير. الأمر الذى يوضحه الجدول التالى:

جدول رقم (١)

أعداد الطلبة في شعبة رياض الأطفال بكلية التربية – جامعة حلوان عام ١٩٩٣/٩٢.

الفرقة	عدد الطلبة	عدد الطالبات	المجموع	ملاحظات
الفرقة الأولى	توقف قبول الذكور	٣	٣	طالبات فقط
الفرقة الثانية	١	٧	٨	منهم اثنان من الخارج
الفرقة الثالثة	١	٥	٦	
الفرقة الرابعة	٢	١١	١٣	
المجموع	٤	٢٦	٣٠	

وبناءً على ما سبق ، فإن تأنيث التربية في دور الحضانة ورياض الأطفال تأنيثاً كاملاً أمر يجب ألا يقف عنده الفكر التربوى جامدا أمام عرف اجتماعي لم يأت به قرآن كريم ، ويستلزم إعادة النظر فيه تجديدا وإصلاحها تشريعا وتطبيقا ، وتخفيفه

تدريجـــيا بضرورة مشاركة المعلم الرجل في العمل مع الأطفال ليرسم للأطفال الذكور نمـــوذج البالغ الراشد الذى يتطلعون إليه، وذلك تجنباً للتأثيرات السلبية لهذا التأنيث الكامل على عملية التنميط النوعي للأطفال، وارتفاعاً بالوضع الاجتماعي لمهنة تربية الطفل من ناحية والمكانة الاجتماعية لمعلم رياض الأطفال من ناحية أخرى في إطار مهـــنة راقية متنافسة مازالت لم تستكمل عناصر قوتها في السوق الاجتماعية للعمل مع الأطفال في مؤسسات تربية ما قبل المدرسة.

وأخيرا ، فإذا كان القرآن الكريم قد أعطى مهمة تربية الطفل في مراحله الأولى فـــي الأســـرة لكـــل من الوالدين (الأب والأم) دون أن يستثني أحدا منهما (رب ارحمهما كما ربياني صغيرا) ، فهل نستمر نحن في إبعاد الرجال (كمعلمين – بدلاء للآبـــاء) في تربية الاطفال ، ونتحيز للإناث (كمعلمات – بديلات للأمهات) في هذه التربية المبكرة ، وكأنه قدرا محتوما لا فكاك منه ؟!

والسؤال الذي يظل مطروحا على بساط البحث وحتى إشعار آخر هو:

هل أن تأنيث تربية الطفل
في
دور الحضانة ورياض الاطفال
سيظل قدرا محتوما ؟ !
إنها قضية تربوية مطروحة للمناقشة